صورة الجزائر العلمية في المتن الرحلي المغاربي -ابن زاكور الفاسي انتخابا-

Algeria's scientific image as depicted in the Maghrebian travel literature written texts -Ibn Zakour Al-Fassi writings as a Sample-

● الدكتور: قروي سميرة

قسم اللغة والأدب العربي –جامعة الشهيد عباس لغرور- خنشلة (الجزائر)
samira.garoui61@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/10 تاريخ القبول: 2021/01/12 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

يلعب أدب الرحلة دورا كبيرا في تجلية خصوصيات الثقافة المنظورة، وبخاصة إذا كانت الرحلة علمية، وهذا ما بينه النص الرحلي للأديب ابن زاكور الفاسي الذي قَدِم إلى الجزائر سنة 1683م، للتعلّم على علمائها وطلب إجازاتهم العلمية.

تحاول هذه الدراسة رصد صورة الجزائر العلمية من خلال عدسات هذا الرحالة المغربي، لتقف على حدود تفاعلها الثقافي في محيطها المغاربي، ومساعيها في توسيع آفاق معرفة أبنائه.

وقد خلص البحث إلى أن متنه الرحلي الشاهد على حدود التثاقف والتجسير يعدّ مرجعا مهما يجلي الوجه المشرق لتاريخ الجزائر الثقافي والعلمي، ومدى إشعاعيته على كل المنطقة في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: الأدب الرحلي؛ ابن زاكور الفاسي؛ التثاقف والتجسير؛ الإشعاع الفكري؛ الإجازات العلمية.

Abstract:

Travel literature plays a major role in showing visible culture specificities, especially when the journey is a scientific expedition. In this respect, travel writings of Ibn Zakour Al-Fassi, a Moroccan traveler who came to Algeria in 1683 acquiring knowledge from its erudites and scholars, have provided valuable information about the cultural and scientific climate in Algeria back then. This study aims at investigating the scientific image of

Algeria through this traveler eyes to determine its cultural interactions limits within the Maghrebian context, and its credit for expanding knowledge all over the region. The research concluded that Ibn Zakour's travel writings, that witness acculturation and intellectual bridging, serve as important references in unveiling the bright side of Algerian cultural and scientific history, and its intellectual enlightenment extent over the whole region in that age.

key words: travel literature; Ibn Zakour al-Fassi; acculturation and bridging; intellectual enlightenment; scientific permits.

أولا - مقدمة:

يعدّ أدب الرحلات سجلا حافلا بمختلف مظاهر حياة البلدان المرتحل إليها، بما يقدمه من حقائق جغرافية وتاريخية وسياسية واجتماعية ودينية واثنوغرافية، وبما يكشف من حياة فكرية وعلمية، وهو فيما يقدّم المعلومة حول ما رصدته عين الناظر يحرص في الآن ذاته على توقيع نوع من الجمالية والشعرية حتى تتحقق سمة الأدبية.

ولقد حفظ الأدب الرحلي في جانب من جوانبه الكثير مما أغفلته سير وتراجم الأعلام والبلدان، وفي تقصينا لحاضرة الثقافة في الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي ارتأينا أن نشاهدها من خلال عدسة الزائرين وطلاب العلم الذين خبروا قيمة الأوطان وما تكنّه من درر العلم والعلماء فانتقوا محجاتهم بعناية، وتشرّفوا بالاستجازة العلمية فيها على يد من وثقوا بعلمه من علمائها، فكانوا شهود عيان على الحركة العلمية والزخم الفكري الذي شهدته، والتفاعل العلمي والعلاقات الثقافية والفكرية التي كانت قائمة بين العلماء والحواضر العلمية، وعلى طرق التدريس وكيفياته ومراحله، بل وترجموا لبعض مشاهير العلماء فحفظوا أسماءهم، وعرّفوا بمنجزاتهم العلمية، فحفظوا التراث وسجّلوا التاريخ الثقافي لفترات بعينها.

وفي هذا السياق كانت رحلة "ابن زاكور الفاسي" التي أفرزت مؤلفه الذي عنونه بـ **"نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"** الذي يعدّ معينا ثرا وشاهدا على المشهد الثقافي في حاضرة الجزائر المنتعش أنذاك، والذي ألحّ العدو وعلى رأسه المستشرقون وحرسوا على شجبه ليؤكدوا أن الجهل المستشري يستدعي نوعا من التنوير لا يوفره إلا تدخلهم لقيادة البلاد؛ فالجزائر في نظر الغربيين وعلى رأسهم بعض المستشرقين تتلخص في كونها عش اللصوصية.. يذوق النصارى فيها مختلف أنواع العذاب، فسجونها مكتظة بهم.. لذلك فإن مفاداة الأسرى هي الشغل الشاغل للدول الغربية مع جرائم قراصنتها.

هذا ما يرصده ويجمع عليه روك كيفيل ودولاكروا وإمريت ودان الأب وهرزيلت.[1] ويجرأ وليام شيلر على نفي وجود العلم والتعلّم في الجزائر ويدّعي أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلّم القرآن الذي هو كل آدابهم، بل ويذهب إلى القول "وأما حالة العلوم فإنها غير موجودة .. محتقرة بل إن علم الطب نفسه لا يوجد.. إلا إذا استثنينا المشعوذين والسحرة"[2].

وفي ظل هذه الرؤية السوداوية المسلّطة على صورة الجزائر الثقافية تأتي المتون الرحلية العلمية وعلى رأسها المتن الرحلي لابن زاكور الفاسي لتفنّد هذه المزاعم وتدحض هذه الافتراءات فتكون شاهدا على انتعاش المشهد الثقافي والفكري والعلمي في الجزائر في تلك الفترة، ما جعل أبو القاسم سعد الله يعدّها في مؤلفه "تجارب في الأدب والرحلة" من أهم المراجع لمن رام تقصي تاريخ الجزائر فقد قال: "من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية مثلا لا يمكنه أن يستغني عن رحلات التمقروتي، والعبدري، والبلوي، والعياشي، والغساني، والزياني، والجامعي، وابن زاكور، والدرعي وأضرابهم.. فأعمالهم جميعا أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع"[3].

ثانيا - التعريف بصاحب الرحلة: (1663م- 1708م) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي، أديب ورحالة وشاعر، اختلف في سنة ميلاده وقيل أنها كانت بفاس سنة 1663م، تلقى علومه الأولى بفاس، ثم لما شبّ ارتحل عنها طالبا للعلم مستعينا بما وهبه الله من ذكاء مفرط وحافظة متميّزة، فحفظ القرآن وبعض المتون كألفية ابن مالك والآجرومية، ومنظومة ابن عاشر، و"رسالة" القيرواني و"تلخيص المفتاح"، و"جمع الجوامع" لابن السبكي، و"مختصر خليل"، و"كافية ابن مالك" وتسهيله، و"كافية ابن الحاجب" وغيرها، وقد نظم الشعر وتوجه للتأليف في سن مبكرة، وتنقّل بين البلدان طالبا لأنواع العلوم من أفواه العلماء في الأدب واللغة والطب والتراجم والتاريخ والحديث والأصول. ومن تلك الرحلات كانت رحلته إلى الجزائر التي قدم إليها سنة 1683م للتعلم على يد علمائها وطلب إجازاتهم العلمية، حتى تضلّع في مختلف العلوم والفنون وحصّل ثقافة متنوعة، ولعل شهادة تلميذه ابن الطيب العلمي توجز ذلك حيث يقول فيه: "جلس للإقراء في شبابه، فأتى بيت التدريس من بابه، وتأسى في الصلاح بأربابه .. فتكلم في المذهب، وذهب في التحقيق كل مذهب، وأوجز ما شاء وأسهب، وطاول في الفروع ابن القاسم وأشهب، وخاض في المعقول، فبهر العقول، ووقف التحقيق عند ما يقول، وتصدر في السيرة، وأحكام القرآن وتفسيره، وحرر حرز أمانيه وتيسيره، ونجا في الرواية من الغواية، وألف في الأصول ما لم يزل به بين الأقران يصول، وقام العروض بالنوافل والفروض، ففك منه الدوائر، واختار من

المراقبة فبرئ من المعاقبة."[4] وقد برع في تدريس وتلقين الكثير من العلوم والفنون التي حصّلها حتى نال إعجاب أهل عصره من شيوخ وتلاميذ فحلوه بشهادات خالدة؛ فقد نعته شيخه محمد بن محمد بن عبد المؤمن الجزائري بـ"...الفقيه النبيه، العالم الوجيه اللذوعي الأوحد، جامع الفضائل التي لا تجحد..."[5] كما حلاه شيخه علي بن بركة بقوله: "... الجهبذ الأريب، المصقع الأديب، الثقف اللقن، المتفنن، المشارك المتقن، الفقيه النبيه، الزكي الوجيه، ذو الفضل المعروف غير المنكور."[6] وقال عنه العلامة الأديب المؤرخ محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف بن الشريف العلمي الحسني الإدريسي: "... الأديب أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور، وحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الذي أرسخ في أرض الفصاحة أقدامه، وأكثر وثوبه على حلّ المقفلات وإقدامه، فتصرف في الإنشاء، وعطف إنشاءه على الإخبار، وإخباره على الإنشاء، وقارع الرجال في ميادين الارتجال، وثار في معترك الجدال، ما شاء وجال، فهو الذي باسمه في الأوان هتف، وهو الذي يعرف في كل العلوم من أين تؤكل الكتف..."[7] وقال عنه أستاذه ابن مخلوف:"الإمام الفقيه العالم المشهور، شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، ووحيد البلاغة، وفريد الصياغة، المتفنن في العلوم، الحامل لواء المنثور والمنظوم"[8] فجل شيوخه وأساتذته يشهدون له بالجد والفطنة والعلم الوافر الذي تفانى في طلبه والانتفاع والنفع به.

وقد خلف آثارا علمية قيمة في شتى الميادين؛ في التراجم والتاريخ والحديث والأصول والطب والأدب واللغة، والشعر* .. وقد أحصاهم بوتشي السكيوي محقق كتاب "تزيين قلائد العقبان بفرائد التبيان". وقد طبعت رحلته لأول مرة بالجزائر سنة 1902م بمطبعة فونتانة.

ثالثا - مضمون الرحلة:

يقول صاحب الرحلة ابن زاكور: "إن الرحلة منّة من الله ونحلة، تكسب غليظ الطباع غاية الرقة والانطباع، وتعقب من كابد لها نصيبا علما غزيرا وأدبا.. وقد أردت أن أذكر من حلاهم (العلماء الذين أخذ عليهم العلم وأجازوه) في هذه الأوراق، ما تحسده الجواهر في الأطواق، وأنقل إثر ذلك إجازة من أجاز، وأباح لي الرواية عنه في الحقيقة والمجاز"[9] وقد أدرج النقاد رحلته ضمن ما يسمى بـ "فهرسة الرحلة" لأنها فهرسة أثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم، وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات، ونصوص وإجازات وهذا النوع من الفهرسة "يكتب في شكل رحلة، يسجل المؤلف ما رآه أثناء الرحلة، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي يمر بها"[10]. وكما يوضح العنوان فإن رحلته تتضمن قسمين الأول خاص بالجزائر وأعلامها – وهو الذي يهمنا- والثاني، خاص بتطوان ومشايخها.

فأما ما يخص الجزائر، فقد غطت رحلته فترة من أزهى عصور الدولة العثمانية في الجزائر (القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي)، وقدمت صورة تكاد تكون دقيقة ومفصلة للحياة الفكرية والعلمية والدينية، بما رصدته من أخبار علمائها ولقاء شيوخها الذين خلّدت أسماءهم، والذي رأى بأنهم سرّ جمال البلاد وسرّ جاذبيتها يقول:".. والذي أعارها ذلك المرأى الجميل، وأصارها فضية الصباح عسجدية الأصيل، وألحفها بهجة وإشراقا، وألبسها نضرة وإبراقا، وأبداها للعيون آنق من جيرون، غُرَرُ أعلام ينجلي بهم الإظلام، وشموس أئمة، تنفرج بهم كل غمّة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة من جبال كالجبال، وأحبار كالأقلام، طلعوا في بروج سعودها بُدُورا، ألبسوها رواء ونورا، فاهتديت بأنوارهم السنية، إلى قطف ما راق من أنوارهم الجنيّة، ورتعتُ في رياض آدابهم فتمتَّعت من حياض علومهم حتى تضلعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت، ونسيت ببشرهم وتأنيسهم، وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم، ما عانيته من رهج القفار، وقاسيته في لجج البحار، ثم ينشد قائلا:

ولو لم يزد إحسانهم وجميلهم على البِرّ من أهلي حسبتهم أهلي".[11]

فتضمنت رحلته بذلك قسما لوصف مدينة الجزائر ومدحها، والإشادة بخيراتها التي كانت سببا في كونها محط أنظار الدول الاستعمارية، كما شملت الاطلاع على المكتبات، والحصول على الأسانيد والكتب النادرة، كما ضمّنها أخبارا دقيقة عن العلوم والإجازات التي حصّلها بنصوصها، ووشّحها بما جادت به قريحته في حق شيوخها وعلمائها وأساتذته. وخص بالذكر أعلام العاصمة، وإن لم يورد أسماءهم جميعا فلكثرتهم، وهذا يدل على أنّها كانت قبلة علم ومحجة لطلابه لا يستهان بها. كما أورد الكتب التي راجت فيها وكانت تُعتمد في التدريس، ومضامينها وتوجهاتها العقدية والفكرية، وصوّر طرق التدريس ومددها الزمنية، وقائمة المدرسين، وسلسلة المشايخ موردا الروابط بين علماء المشرق وعلماء المغرب وأساتذة شيوخه من المشارقة والمغاربة الذين أخذوا عنهم العلم. كما صور غارة فرنسا على الجزائر سنة 1683 بقيادة دوكسين، والخرائب التي أحدثتها.

وما ركز عليه أكثر كان ذكر بعض شيوخه الذين أخذ العلم منهم وإجازاتهم له، بل والإجازات التي منحت لهم هم أيضا من قبل شيوخهم*، وركز على إيراد مضامين هذه الإجازات التي تشي بتواضع أصحابها رغم باعهم الطويل في العلم؛ فقد امتنع جلهم بدءا عن التشرّف بمنحها له مدعين بأنهم ليسوا أهلا لمنح مثل هذه الإجازات* التي أثنت كلها في نهاية المطاف على طلاب علم

تلك الحقبة، المغاربة عموما وابن زاكور خصوصا، وعلى علماء الجزائر الذين سهروا وتفانوا في تقديم العلم ونقله إلى الخلف، لذلك خصهم بمدحيات أثنت عليهم وخلدت أسماءهم.

ولعل قيمة هذه الرحلة وأدبيتها تكمن في تجاوزها رصد المشاهد السياحية (عمرانية أو طبيعية أو اقتصادية واجتماعية) إلى الاحتفاظ بأسماء هؤلاء الأعلام وإنجازاتهم، والنصوص الشعرية التي صارت الرحلة ديوانا لها، وفي هذا يرى **الحسن الشاهدي** صاحب كتاب "أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني" أن الرحلات "تعتبر مصدرا هاما للإنتاج الأدبي، بما تتضمنه من نصوص ونماذج أدبية تكاد تكون نادرة، فأضحت بذلك ديوان كثير من الشعراء الذين لا توجد لهم دواوين تجمع أشعارهم وتحفظ إنتاجهم."[12] ويقول أيضا: "أغلب الرحالين حرصوا على نقل الأشعار وروايتها وسجلوا لأنفسهم أيضا قدرا مهما من القصائد الشعرية فكانت هذه الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها، خصوصا إذا علمنا أن أكثرهم لا تعرف لهم أشعار إلا من خلال ما أثبتوه في رحلاتهم."[13] فهي تنقل لنا الشواهد الحية عن النشاط العلمي والمنجز الإبداعي لصاحب الرحلة ولشيوخه.

رابعا- أعلام الجزائر الذين خلدتهم رحلة ابن زاكور:

ونحاول أن نورد بعض أسماء أعلام الجزائر الذين تتلمذ على يدهم وأخذ عنهم العلم فخلدتهم رحلته، والذين نبتغي التعرّف عليهم ورصد منجزاتهم وآثارهم لنقف على حدود التفاعل الثقافي في محيط المغرب العربي، ومساعي هؤلاء الأعلام في توسيع آفاق معرفة أبنائه، وموقف طلاب العلم من هذه الثقافة والعلوم، ولنقف على حدود هذا التثاقف والتجسير الذي مده أبناء المغرب العربي (طلاب علم وأساتذة وعلماء) فيما بينهم، بل وبينهم وبين المشارقة، لأن هذا يبيّن ويؤكد على الوجه المشرق لتاريخ الجزائر الثقافي والعلمي، ومدى إشعاعيته على كل المنطقة في تلك الفترة. ومن هذه الأسماء:

- **الشيخ أبو حفص عمر بن محمد المانجلاتي:** هو الشيخ عمر بن محمد بن عبد الرحمن المنجلاتي المكنى بأبي حفص "فقيه كبير، أصولي منطقي، مشارك في الكثير من العلوم، من أهل بجاية، انتقل منها بعد سقوطها إلى مدينة الجزائر، فكان من كبار علمائها، رحل إلى المغرب وأُخِذ عنه، مات بمدينة الجزائر"[14] وهو أحد علماء الجزائر الذين يؤكدون التفاعل القائم بين علماء حاضرتي الجزائر وتطوان لتلقينه العلم بهما معا؛ فهو الذي ارتحل إلى المغرب وأقبس ابن زاكور بالجزائر وتطوان –كما

يقول- بكلتا يديه، وأجاز له الرواية عنه في الجزائر وتطوان. وقد امتدحه برائيته السنية التي نقتطف منها هذه الأبيات التي يقول فيها:

حبر الجزائر والدنيـــــا برمتهـا من عالج العلم حتى ذاع وانتشـــرا

بدر الجلال ومصباح الكمال ومق باس الجمـــال الذي كل الورى بهرا

شيخ أحـــاط بأنواع المديح فمـــا أبقى لمن بعده شـــيئا ومـــــــا ذرا

قاض القضاة الذي لا شيء يعدله في عدله ألذّ فشا في الناس واشتهـــرا

بحر العلوم التي غـاضت منـاهـلهـا منذ زمـــان وسيل الجهل فيهـا جـرا

شمس الأصـول التي تعشي أشعتها عين الجهول فلم يستطع لهـا نظرا[15]

وهو من تباهى بإجازته له حتى قال:

من ذا يطاولني والمجد صافحني والبدر أقبســـني والعلـــم لي سفرا[16]

- **الشيخ علي بن عبد الواحد السجلماسي الأنصاري:** هو علي بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن يحي بن أبي يحي بن أحمد بن السراج أبو الحسن الأنصاري السجلماسي الجزائري، وهو شيخ أستاذه أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن المانجلاتي الجزائري. وهو مثال للتثاقف الذي حدث بين حواضر الجزائر والمغرب والمشرق فقد ذكر صاحب كتاب "صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر" أنه "ارتحل لفاس فأخذ بها عن عبد الله بن طاهر الحسني، وابن أبي بكر الدلائي.. وعن أبي العباس أحمد المقري.. ثم سافر للحجاز بعد الأربعين، فأخذ عن الغنيمي الأجهوري ثم عاد للجزائر واستقر بها لإفادة العلم."[17] أما صاحب كتاب "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" الذي يرفع نسبه إلى سيدنا سعد بن عبادة رضي الله عنه يلتفت إلى علومه المتنوعة التي حصلها من حواضر شتى مشرقية ومغربية فيصفه بأنه "الإمام الحافظ المتفنن المحدّث الإخباري المؤلف المتقن أخذ عن أئمة أهل فاس وغيرهم كأبي محمد عفيف الدين عبد الله بن علي بن طاهر الحسني وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي وشهاب المقري.. حج ودخل مصر سنة 1043هـ وأخذ عن الشيخ أحمد الغنيمي والشيخ أحمد بن عبد الوارث البكري والنور الأجهوري وغيرهم وعنه أبو مهدي عيسى الثعالبي ومفتي الجزائر وخطيبها أبو عبد الله الموهوب..

له مؤلفات كثيرة منها تفسير بلغ فيه "ولَكِن البِرَّ مَنِ اتَّقَى"، وشرح التحفة لم يخرج من المسودة، وتقييد على المختصر لم يكمل، ونظم السيرة النبوية، ونظم قواعد الإسلام، وعقد الجواهر في نظم النظائر، واليواقيت الثمينة في العقائد والأشياء، والنظائر في فقه عالم المدينة ومسالك الوصول في مدارك الأصول، ونظم أصول الشريف التلمساني، وشرح منظومة في وفيات الأعيان، وأخرى في التفسير وأخرى في مصطلح الحديث، وأخرى في الفرائض، وأخرى في التصوف، وأخرى في الطب، وأخرى في التشريح، وأخرى في المعاني والبيان، وأخرى في المنطق، وشرح درر اللوامع لأبي الحسن بن بري وغير ذلك."[18] وقد أخذ عنه صاحب الرحلة فن الأصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والسير والتصوف.

- **الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري**: المكنى بأبي عثمان، وهو إمام الجامع الأعظم بالعاصمة ويثبت صاحب "معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر" أنه "مفتي مدينة الجزائر وفقيهها وعالمها وصالحها، تونسي الأصل، جزائري المولد والنشأة، أخذ عن سعيد المقري وغيره، وأخذ عنه محمد بن إسماعيل مفتي الجزائر، ويحي الشاوي وغيرهما، من آثاره: "شرح الصغرى" للسنوسي، و"شرح السلم المرونق" في المنطق للأخضري، و"شرح على جوهرة التوحيد" للقاني في العقائد"[19] وهو أحد شيوخ أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن المانجلاتي الجزائري أستاذ ابن زاكور، وقد أخذ عنه الحديث والفقه، والنحو والتصوف.
- **أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري:** هو محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري المكنى بأبي عبد الله "قاض ومحدّث وفقيه، من كبار العلماء في وقته. ولد بمدينة الجزائر، وتعلم بها، ثم ارتحل إلى مصر ليأخذ العلم عن علمائها، ولما عاد إلى الجزائر ولي قضاء المالكية بها، وتوفي بمدينة الجزائر"[20] ومن شيوخه عبد الله محمد المعروف بـ "الكماد" القسنطيني* وقد عدّه ابن زاكور "غرة مجد في جبين الجزائر ساطعة، ودرة فضل في جيد المكارم لامعة، وبحر من السماحة زاخر، أعي الأوائل والأواخر.. حتى أربى على أهل زمانه، وطاول أحبار أوانه.. إذا سجع كلاما أو رصع نظاما، سحر ببيانه عيانا، وأسكر بسلافة إبداعه أذهانا، وإن تكلم في سائر العلوم نفّس عن المكظوم، وأحيا قتيل الهموم."[21] ومن شعره فيه قوله:

أفادنـــــا علم الفرائض في أدنى مدى ارفـل في مشيته
من درسه النظم الذي صاغه نجل التلمســان في صنعته
نظم عقــود الدر لــم تحـكه أبدع مـــا ألــف في صفته

أحصى أصـــول الفن محكمة وحاكهـــا طـــرا على نزرته
مـــاذا يقـــول المرء في مدحه وقد تناهى الدهر في خدمته
والشمس أولته أشعتهـــــــا والبدر حـــــــلاه بتحليته
وخيم المجد بســـــــــاحته وفاض بحر الجود في بردته
بدر الهدى والعلم يا من غدت تسجد أمداحي إلى قبلته[22]

ويقول فيما خلفه من شعر: "ولهذا المولى أشعار، أرق من نسمات الأسحار، ورسائل آنق من نفحات الخمائل، لو قرأهما على الصخر لتفجّر ما صراحا، ولو ألقاهما على البحر لصار سلسلا قراحا"[23] وقد أجازه أن يروي عنه أرجوزته في العقائد والعبادات التي قاربت الثمانيين بيتا والتي حفظتها الرحلة وقد وصفها بـ"الأرجوزة البارعة، الواردة موارد الإبداع ومشارعه، وكفى بنظامها الغريب، دليلا على أن لصاحبها في الأدب والعلم اليد الطولى والباع الرحيب"[24] كما أورد أسماء العلماء المشارقة الذين أجازوا شيوخه ودرسوا عليهم، فكانت رحلته في هذا المقام حفية بأسماء علماء ورواة مغاربة ومشارقة نساء ورجال.

- **أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري:** وهو محمد بن سعيد بن إبراهيم المكنى بأبي عبد الله قدورة، ابن سعيد بن إبراهيم أبو عثمان المعروف بقدورة الجزائري المالكي "من أكابر علماء مدينة الجزائر، انتهت إليه خطابتها وفتياها. وهو شيخ الفقه والحديث ووارث الشرف القديم والحديث، عليه يعتمد في رواية الآثار وتصحيح أسانيد الأخبار"[25] وقد خصه ببعض مدحياته فخلد ذكره بها، جاء فيها:

قد آن أن ينجز الوعد الذي وعـــدا من لا نرى حازمـا قدحازه أحدا
ومن حوى العلم والمجد الصراح معا ومن روى عن أبيـه البرّ والرشدا
سمي خير الورى مفتي الجـــزائر مَنْ مِنْ بحره اغترفت أحبـارها مددا[26]

- **أبو عبد الله بن خليفة:** وقد أورد عنه أنه حائز قصب السبق في فنون مشتركة، شيخ المشايخ، الذي له في تحقيق العلوم قدم راسخ. وقد صور رحلته في طلب العلم من المشرق وتفانيه فيه يقول "فاضل علامة رحالة مجذامة، صحب في تحصيل العلم الصالح والطالح، وركب في تطلبه العذب والمالح، وما برح يكابد لأجله حرة تحتها قرة.. دخل مصر وهو غلان، لسلسبيل البيان، فكرع في غديره، حتى تضلع من نميره، وأحرم بمطافه، حتى تروى من نطافه، فآب إلى الجزائر بعد أن ألحم من أسراره وأشحم، واقتبس من أنواره ما ينجلي به الليل الأسحم.. فتصيع بين جداولها بحرا، وطلع في سماء معارفها بين دراريها بدرا، وتصدى للتدريس والتصنيف، وتردى بحلتي التقديس

والتشريف، وتميز بين أولئك الأعيان، بحمل راية البراعة والتبيان، وصال على الجميع بألوية محسنات البديع."[27]

هؤلاء هم أعلام الجزائر الذين أوردت الرحلة أسماءهم من مجموع أعلام كثيرين في شتى العلوم والفنون، وقد ركزت الرحلة على هؤلاء دون غيرهم لأنهم شيوخه وأساتذته الذين كانوا وجهة رحلته وضالته في القيام بها، وعنهم أخذ علمه وفي هذا يقول: "وليكن هذا المولى (يقصد أبو عبد الله بن خليفة) خاتمة من أردنا ذكره من أعلام هذه البلاد، من حاضر وباد، وإنما لم أحفل بسواهم، ممن تبوأ ذراهم، اكتفاء بالبحار، عن الجداول والأنهار، واستغناء بشموس النهار عن الدراري والأقمار، وحرصا على إتيان بيوت المعارف من أبوابها، وتلقي درر المحاسن عن أربابها.. على أن بعض من ذكرته أصل البعض في بعض الفنون.. لكن تفرعه عن غيره، وتضلعي من بحره، وصفاء درّه، هو الذي أوجب إذاعة ذكره، وإشاعة شكره"[28].

كما أوردت الرحلة أسماء أساتذته الذين أخذ عنهم في حاضرة تطوان وفاس والذين لا يتسع المقام لذكرهم لأن أصل العمل مركوز في بحث أعلام الجزائر، لكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا القسم الخاص برحلته إلى تطوان هي تلك المدحيات التي نظمها في شيوخه، وتلك القصائد السنية التي نظمها أو نظمها بعض شيوخه في سؤال بعضهم عن بعض العلوم والشروح والتي كانت إجاباتها شعرا، وكان يعقبها تعاليق الشيوخ بعضهم على بعض، كقصيدة محمد بركة سائلا بها محمد الفاسي عن معنى حديث، وجواب أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي له بقصيدة، ثم شرح الناظم ذاته (أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي) لقصيدته، وتعليق أبي الحسن الحاج علي بن محمد بركة على جواب محمد الفاسي، ورد محمد الفاسي على تعليق أبي الحسن علي بن محمد بركة، وقصيدة ابن زاكور في طلب الطريقة الناصرية من شيخه اليوسي.. كل هذا يشي بتفاعل وحوارية وتثاقف خاص ميز تلك الفترة، وأضفى على الرحلة نوعا خاصا من الشعرية سمت بها وبصاحبها.

خامسا- خاتمة:

نخلص في نهاية بحث خصوصيات هذه الرحلة وخصوصيات المشهد الثقافي في الجزائر في هذه الفترة إلى نتائج نجملها فيما يأتي:

- ✓ إن **ابن زاكور** لم يكتف في رحلة طلب العلم بأخذه وتحصيله فقط، بل عمد إلى تدوين ما شاهده وما أخذه من أقطابه، لذلك فإن رحلته تمثل جزءا مهما من التاريخ

العلمي للمنطقة. كما أدى دور السفير والممثل لبلده، ليؤسس لنوع من التثاقف والتجسير بين البلدين.

- ✓ تجاوزت الرحلة رصد المشاهد السياحية إلى رصد المشهد العلمي والاحتفاظ بأسماء العلماء والتعريف بهم.
- ✓ تعد شاهدا حيا على انتعاش الحركة العلمية والمشهد الثقافي والتفاعل والتثاقف الحاصل بين دول المغرب العربي بعضها ببعض وبينها وبين المشرق العربي.
- ✓ تفند افتراءات ومزاعم بعض المستشرقين القاضية بجمود العقل العربي أنذاك، وعطبه الفكري وعدم قدرته على الإنتاج.
- ✓ تعتبر مصدرا هاما للإنتاج الأدبي، بما تضمنته من نصوص شعرية التي صارت الرحلة ديوانا لها، ونصوص إجازات فقدت فنونا أدبية تجنسها.
- ✓ الحرص على نقل الأشعار وروايتها، ونظم القصائد الشعرية وبخاصة المدحية منها.
- ✓ الفهرسة لشيوخ العلماء، وشيوخ شيوخهم وإجازات الشيوخ لتلاميذهم.

- قائمة المصادر والمراجع

1. ابن زاكور الفاسي، نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق: محمد ضيف ومحفوظ بوكراع، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2011.
2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983.
3. الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الجزء الأول، منشورات عكاظ، الرباط، دط، دت.
4. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980.
5. محمد بن الحاج الافراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004.
6. محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، تعليق:عبد المجيد خيالي، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
7. محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

8. مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.
9. وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1819–1824، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية، الجزائر، دط، 1982.

1 - ينظر مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت، ص31.

2 - وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1819-1824، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية، الجزائر، د.ط، 1982، ص81.

3 - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 203.

[4] - ابن زاكور الفاسي، نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق: محمد ضيف ومحفوظ بوكراع، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 18-19.

[5] - نفسه، ص 21.

[6] - نفسه، ص 22.

[7] - نفسه.

[8] - نفسه، ص 23.

[*] - ففي التراجم والتاريخ خلف "الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العلم (في نسب المولى عبد السلام بن مشيش وذكر ما له من أولاد)، المعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين. وفي الحديث والأصول: الحلة السيراء في حديث البراء. معراج الوصول إلى سماوات الأصول، وفي الطب: الدرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة (تذييل لأرجوزة ابن سينا في الطب)، وفي ضبط الوقت: الروضة الجنية في ضبط السنة الشمسية (أرجوزة في التوقيت وحساب أيام العام)، وفي الأدب واللغة: ديوان شعر بعنوان "الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض"، وكتاب في النحو "الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول، وأنفع المسائل في أبلغ الخطب وأبدع الرشائل، و"عنوان النفاسة فيشرح ديوان الحماسة. تزيين قلائد العقبان بفرائد التبيان، الجود بالموجود في شرح المقصور والممدود، "تفريج الكرب في شرح لامية العرب (لامية العرب للشنفرى)"، النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية (وهو شرح لمتن القصيدة الخزرجية في علم العروض لضياء الدين الخزرجي)، الصنيع البديع في شرح الحلبة ذات البديع (بديعية صفي الدين الحلي)"، "تقييد في شرح أبيات الحماسة"، "إيضاح المبهم من لامية العجم"، "كفاية اللبيب في التوقيت بعمل النسبة والجيب" ينظر نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، 23-25.

[9] - نفسه، ص 40-41.

[10] - ينظر، نفسه، ص 28-29.

[11] - نفسه، ص41.

[*] - مثل ما أورده من إجازة الشَّبْرَاملسي لمحمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري. للاستزادة ينظر نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ص 62.

[*] - فقد امتنع جلّ شيوخه عن منحه الإجازات التي يطلبها منهم، واتصفوا بعدم الجرأة على الإقدام على هذا الفعل، وفي هذا يقول شيخه أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري: "..فالتمس مني أن أُجيزه فيما قرأ معي، أو سمعه مني، فاعتذرت إليه من التقصير، والباع القصير، وعدم التأهل لأن أجاز فضلا عن أجيز" رحلة ابن زاكور، ص 56. ومنه ما قاله في استعطافه شيخه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري يقول: "ولما أزف رحيلي، طلبت منه أن يجيزني بما ينفع غليلي، فأبعد أن يكونمن أهل هذا الطريق، واعتذر بعذر ذهب من اللطافة في كل طريق، فلم ازل ألح عليه في اللب، ويمدإلي من الموعد بسبب حتى كنت على الظعن على قرب، فكتبت إليه:

قد آن أن ينجز الوعد الذي وعـــدا من لا نرى حازما قد حازه أحدا
ومن حوى العلم والمجد الصراح معا ومن روى عن أبيه البرّ والرشدا
مولاي أسرفت في إنظـــــار منتظر إجازة وهي أسنى ما به اعتضـدا
لا تمطلنه ففي مـــــطل الغني أتت آثار صدق بـــان الظلم فيه بدا
أجز وأنجز فلا عـــــريت من شرف إجازة وهي أسنى ما به اعتـضدا
لا تمطلنه ففي مطـــل الغني أتـــت آثار صدق بأن الظلم فيه بـــدا. نفسه، ص 70.

[12] - الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الجزء الأول، منشورات عكاظ، الرباط، ص 539.

[13] - نفسه، ص 540.

[14] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 316.

[15] - ابن زاكور، نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ص 44.

[16] - نفسه، ص 43.

[17] - محمد بن الحاج الافراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 243.

[18] - محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، تعليق:عبد المجيد خيالي، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 446.

[19] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ص 259.

[20] - نفسه، ص 111.

[*] - ينظر محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص 76.

[21] - ابن زاكور، نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ص 50.

[22] - نفسه، ص 53.

[23] - نفسه، ص 55.

[24] - نفسه، ص 61.

[25] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص 259.

[26] - ابن زاكور، نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ص 70.

[27] - نفسه، ص72.

[28] - نفسه، ص 76.